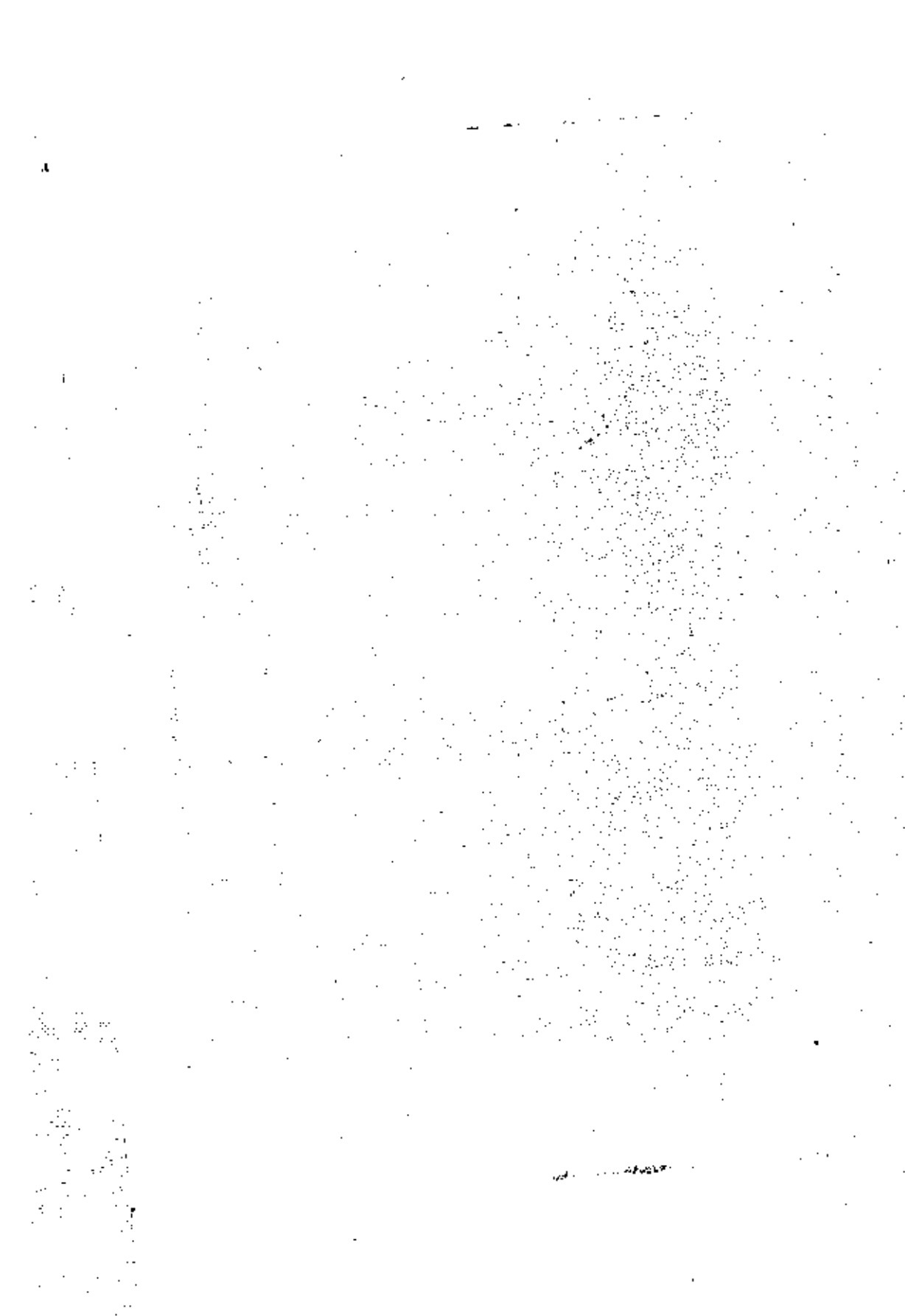

لورنس في الميزان

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

اكليل صلاح الدين

اذا كانت الذنوب تزداد على قدر مرتكبها فهنالك ذنب للكولونل (لورنس) لا اغتفره ابداً ولا يزال في نفسي منهُ ألم يتجدد مع الذكريات وهو قبوله ان ينزل على ارادة الحكومة البريطانية فيسلب السلطان صلاح الدين الايوبي الهدية الوحيدة التي تذكرته بها اوربا لاعماله الخالدة من بعد ما لبثها ثمانية قرون كاملة و(هذه الهدية) هي اكليل من الذهب قدمهُ لهُ الامبراطور غليوم يوم زيارته دمشق من نحو جيل وقد حفر عليه بخط عربي مبين « ان الله يحب المحسنين » . وفي سرقة الاموات عار ليس في سرقة الاحياء ذلك لان الحي يستطيع الدفاع عن نفسه وأما الميت فسلاحه الحرمة الرهيبة الساكنة التي يتكفن بها . ويزيد في قبح هذا العمل ان الكولونل (لورنس) من المولعين بالقرون الوسطى وفروسية ابطالها فهل انجبت تلك القرون يا ترى من يتقدم على السلطان صلاح الدين بالشجاعة والفروسية والكرم وهو هو خصم (ريكاردس قلب الاسد) وبطل تلك المعارك الخالدة؟ وقد فاتحتُ العلامة الدكتور (هوجارث) في امر هذه السرقة المشينة لما زرت (لندن) اخيراً وقلت له لا بد من المطالبة باعادة الاكليل للرأس الذي يستحقه وقد استاء المارشال اللنبي القدس من الشرق بالابهة اللائقة في القرن العشرين فمن المروءة ان يُبقي على اكليل من الذهب بسيط يعلق على تابوت مَن استعادها من الغرب في القرن الثاني عشر وأظهر من النبل في معاملة الخصوم ما يسجل له بمداد الفخر . وعلينا معاشر الاحياء ، وقد ورثنا مجد الموتى واقتنينا مفاخرهم ، ان نرعى ذمتهم على اقل تقدير ونحفظ كرامتهم . وما على رجل حرٍّ مثل (لورنس) مستقل في احكامه ان يطبع مخلوقاً في معصية وجدانه

انسحاب لورنس من حلبة الصراع

اما انسحاب الكولونل (لورنس) من العمل بعد ما خاض في الثورة العربية الى الركب فيما انتحل له من الاعذار وغالى في شأن الخيبة التي اصابته في الصميم من الحكومة البريطانية وحلفائها سيبقى شاهداً ناطقاً على ضعف اعصابه ، وقد سجل التاريخ بين دفتيه فيما سجل ان الذين فازوا بعمل الانقلابات العالمية هم الثابتون من اهل العزائم . ولا إخال الضواءه الى الدبابات واختفاءه تحت اجنحة الطيارات فيما اختاره لنفسه من الخدمة بعد الثورة للازراء

يدفع عنه طائفة اللوم او وخزة التعنيف لأن انسحاب المرء من العمل الكبير بعد ما تحمل تبعته من خير او شر الى حين لا يليق بالرجل الكبير

على اني ارى من باب الانصاف ان اشير هنا الى عذر قاهر ذكره لي اصدقاؤه عنه فقد قصت عليَّ المسز (بجراث) الكاتبة الانكليزية المعروفة في لندن في سنة ١٩٢٤ — وذلك بعد ما رغبت اليها ان تدلني على (لورنس) وتجمعني به بعد تلك النية المديدة — ان (لورنس) اصبح ذا اطوار خاصة لا تدل على سلامة عقل بالمعنى المفهوم حتى انها كادت تعجز عن اقناعه بمقابلة احد الوزراء البريطانيين للبحث معه في مشكلة من مشاكل بلاد العرب وحلها بطريقة الاختيار . ولو لم تأخذه في سيارة من المعسكر بقوتها الساحرة ما استطاعت تلبية الوزير الى طلبه . وكان الدكتور (هوجارث) بجانبي يسمع حديثها فالتفت اليَّ وزاد عليه قائلاً : « اني أرسلت اليه الى المعسكر طبيباً اخصائيًّا في امراض العقل ليفحصه لانني اخشى ان يكون الرجل معتوهاً » وقد يكون انزواؤه الجاف سبب الظن بمرضه

اخلاص « لورنس »

من الفضول بعد سرد هذه الاخبار الوثيقة الضافية ان اسأل هل كان (لورنس) مخلصاً صادقاً لان الحقائق التي دونتها في هذا الموضوع لا تدع مجالاً للشك، وربما تعقد الحكم عليه واستغشى من بعض النواحي لان الرجل كان مربوطاً بعهدين متناقضين عهد الامة البريطانية التي نزل من اصلابها وترعرع في احضانها وعهد الامة العربية التي انتسب اليها في ثورتها واختارها في نهضتها ، لكن بريطانيا ويا للاسف باعت العرب لمطامعها ومطامع حلفائها فاذا يصنع المسكين (لورنس) ؟

انه بذل جهد المستطاع لتثبيت قدم العرب في بلدان رجا ان تتمتع باستقلالها التام تحت اعلامهم ولكن ما الفائدة وقد تفاهم الانكليز مع حلفائهم الفرنسيين على تمزيقها وتشتيت شملها ؟ وأخيراً قرأ (لورنس) في جملة ما قرأ من العهود التي اقطعت للعرب عهداً لسبعة من السوريين فاحسن استخدامه واستفاد منه اكبر فائدة . وهذا العهد هو ما حصلت عليه انا وستة من رفقائي السوريين النازلين بالقاهرة بعد مداولات مديدة مع البريطانيين استغرقت جانباً كبيراً من سنة ١٩١٨ وكان من بين هؤلاء الرفقاء فخر سورية المرحوم رفيق بك العظم وخلاصته كما بلَّغنا اياه شفويًّا مندوب الحكومة البريطانية الدكتور (هوجارث) ان كل ناحية من النواحي تحت سيطرة الترك يفتتحها العرب في ثورتهم تكون بعد الحرب متمتعة باستقلالها التام (راجع كتاب روبرت جريفز صفحة ٢٩٥) وبعد ما اطلع الكولونل (لورنس) على هذا العهد حرص كل الحرص على ان يكون العرب هم السابقون الى دخول الشام ، ويتضح هذا الهدف اتضاحاً جليًّا من الخطة الحربية التي اختطها فان مجلساً حربيًّا

عقد في أواخر سبتمبر من سنة ١٩١٨ وذلك بعد انهزام الجيش الثاني الرابع فاقترح فيه (لورنس) ان يتقدم الجيش العربي الى قرية (الشيخ سعد) في حوران وهي الى شمال (درعا) ليحول دون كل محاولة لاعادة التنظيم في هذا الجيش ولم شعثه حتى اذا ما انسحب الى حدود (طوروس) كما هو المنتظر اتيح للعرب دخول الشام فاتحين وحق لهم ان يطالبوا بالعهد الذي حصل عليه السوريون السيئ ، بيد ان المستشار الحربي الانكليزي مانع في هذه الخطة وقال ان وظيفة الجيش العربي مراقبة الجيش التركي الرابع وقد انتهت وظيفته بانهزام هذا الجيش ووقوع الفوضى في صفوفه؛ وما على العرب الا ان ينسحبوا عشرين ميلاً الى الشرق لينضموا الى الدروز ومعهم (نسيب بك البكري) لكن (لورنس) ضرب بهذا الكلام عرض الحائط واتجه فوراً الى قرية (الشيخ سعد) كما اقترح وانسحب معه نوري باشا السعيد والامير الشعلان وطلال والضباط البريطانيون وسائر رجال الجيش العربي فكان ما كان من سبقهم الى دخول الشام ظافرين . ولما لم يكن لدى القائد البريطاني الذي دخل دمشق عقيبهم التعليمات التي يسير بموجبها فقد سري عنهُ وتنفس الصعداء لما أيقنه (لورنس) ان حكومة عربية قد وقع عليها الخيار ولحظت لتدبر شؤون البلاد ثم رجاهُ ان يشد بالجنود الاستراليين عن دمشق خشية دخول الفوضى على نظامهم بسبب المهرجان الكبير الذي سيقام في تلك الليلة في ساحة الامويين . وغني عن البيان ان هذا التخرج السياسي اللطيف اكسب العرب المظهر اللائق والشأن المفوق. ثم ان (لورنس) اكب على تنظيم الحكومة بالاشتراك مع زعماء العرب وفي مقدمتهم المرحوم شكري باشا الايوبي وعلي رضا باشا الركابي، وسعى لاطعام دمشق وتنظيف شوارعها والعناية بصحتها واشار الى الضالة التي كان ينشدها من هنا بقوله في كتابه « ثورة في الصحراء » صفحة ٣٢٧ : «وكان هدفنا عمل واجهة للبناء اكثر منه تشييد عمارة محكمة. وقد بلغنا من النجاح درجة خارقة حتى انني لما غادرت الشام في اليوم الرابع من اكتوبر — بعد دخولها بثلاثة ايام — كان للسوريين حكومة فعلية في حيز العمل دامت سنتين من غير استشارة اجنبية في بلاد محتلة افتها الحرب وعلى الرغم من بعض العناصر المهمة بين الحلفاء»

وثمة مسعى آخر على هذا النمط من الخطورة والشأن لا يجوز اغفاله وقد اشار اليه المستر (جريفز) بقوله لقد اصيب اخلاص (لورنس) بهزة اخرى وذلك بما استكشفه من المفاوضات التي دارت بين الحكومة البريطانية والترك المحافظين لاجل عقد الصلح . ولم تصله اخبارها بطريقة رسمية بل بطريقة خاصة من اصدقاء له في تركيا. ومن الغريب ألا يستشار احد من رجال العرب في هذا الامر ولا يؤخذ رأيه . وكان الترك المحافظون ويا للاسف يحاربون كل فكرة لانشاء حكومة عربية في سورية بخلاف خصومهم الوطنيين

وعلى رأسهم مصطفى كمال باشا . ولعل هذا الكرهَ في المحافظين نشأ عن تعلقهم بالخلافة وما يخشى من حق العرب فيها . وعرض البريطانيون يومئذ شروطاً فيها الهلاك للكثيرين من العرب الذين حملوا السلاح دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم . لذلك شجع الكولونل لورنس الامير فيصلاً على فتح باب المفاوضات مع الكماليين مباشرة حتى اذا ما اخفق المارشال اللنبي في غارته عليهم وعقد البريطانيون صلحاً منفرداً مع الترك المحافظين الذين استسلموا بقي امل عند العرب بالاحتفاظ بما افتتحوهُ من البلدان الشامية وذلك بالاتفاق مع الترك الوطنيين ضد الترك المحافظين . وقد اوفد الملك فيصل صديقاً لنا الى الاستانة لهذا الغرض فلقي من الترك الوطنيين اقبالاً وكان من نتائج المسعى في هذا الباب ان وضعت مادة في الميثاق الوطني التركي بالاعتراف باستقلال البلاد العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية .

ومن مظاهر اخلاصه للعمل الذي قام به انه بعد ما استعمل المواربة الكلامية في جوابه عن سؤال نوري باشا السعيد «اي العهدين ترتبط به انكلترا» عهد العرب ام عهد (سايكس — بيكو) شعر بخجل عظيم في نفسه على هذه المواربة فأراح ضميره فيما بعد باطلاعه الامير فيصلاً على جميع ما استكشفه من اسرار وزارة الخارجية البريطانية وآلى على نفسه ان يرفض جميع ما يمنح من الانعامات والرتب والاوسمة والاموال لاعماله الممتازة في الثورة العربية

وقد برَّ يمينه بصورة باهرة فانه طبع مثلاً نحو مائة وخمسين نسخة من كتابه الكبير (اعمدة الحكمة السبعة) ففرق ثلثها على اصحابه على سبيل الهدية وباع الثلثين الباقيين للمشتركين بثلاثين جنيهاً النسخة وقد كلفه الطبع ثلاثة عشر الف جنيه وكان ثمن الصور وحدها يربي على قيم الاشتراك فكانت خسارته عشرة آلاف جنيه لذلك ارتأى ان يضع لهذا المؤلف الكبير مختصراً يأخذ من ريعه ما يسد به هذا النقص الذي استدانه من اجلها به وسمى هذا المختصر «ثورة في الصحراء» وقد الفه في يومين اثنين في معسكر (كرانول) للطيران بمعاونة صديقين له من الطيارين . ويقال ان النسخة الواحدة من كتابه «اعمدة الحكمة السبعة» تباع بخمسمائة جنيه الآن لكن لورنس لم يربح فلساً واحداً من جميع ما كتبه عن الثورة العربية

ومن حسن الحظ ان كتابهُ «ثورة في الصحراء» لاقى نجاحاً باهراً حتى ان مطبعة فرنسوية كبيرة استأذنته في نقله الى الفرنسوية فاشترط عليها ان تطبع على غلافه العبارة الآتية «ان ريع هذا الكتاب سيوزع على صرعى المظالم الفرنسوية في سورية» ولكن هذا الشرط حال دون الترجمة طبعاً

ولما عاد الى لندن في يوم اعلان الهدنة بين المتحاربين — ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ — اخذ يبين مطالب العرب في الاوساط السياسية وبعد بضعة اسابيع آل فيصل الى لندن ايضاً ومن هنالك سافر الاثنان معاً الى باريس لحضور مؤتمر الصلح — فيصل مندوباً عن والده باسم الحجاز ولورنس عن الحكومة البريطانية . وأول مصادمة لقيها في باريس هي مسألة

الفرنسويين في الاعتراف بفيصل حاكماً على دمشق وغيرها من البلدان السورية

قال السير (هنري مكماهون): «ان الكولونل لورنس هو الرجل الوحيد الذي كان يعرف كل شيء في مؤتمر الصلح، وكان على اتصال بالثلاثة الكبار (كلمنصو) و(لويد جورج) و(وودرو ولسن) واني لا ادري كيف توصل الى ذلك ولكنه كان دائماً داخلاً خارجاً من غرفهم الخاصة».

وكانت علاقته بالمستر (لويد جورج) علاقة متينة وقد بين له رأيه في القضية العربية ووجوب تمضيدها ومما قاله له ان تترك الصحراء على استقلالها الخاص وان تكون دمشق عاصمة البلدان العربية الحضرية المستقلة وان يكون فيصل بن الحسين حاكماً عليها وان يكون العراق دولة اخرى موقتاً الى ان تتم المواصلات وتتقارب الاوضاع فيؤلف حينئذ حلف عربي على نمط الولايات المتحدة. وقد اوصى فيما أوصى به ألاّ يعمل شيء لتقريب هذا الحلف وألاّ يعمل شيء ايضاً للحيلولة دونه وألاّ يكون للحضر دخل في شؤون البادية. وقيل في الدوائر الخبيرة لو لم تكن (الموصل) داخلة في منطقة النفوذ الفرنسوي — والموصل هي المرق الحساس في سياسة بريطانيا في بلاد العرب — اقبل المستر لويد جورج لنظرية (لورنس) في استقلال سورية. واني اؤيد هذا الرأي بما حصلت عليه من المعلومات الخاصة. فقد اخبرني المستر (تشارلس كرين) رئيس اللجنة الاميركية التي استطلعت سورية في صيف سنة ١٩١٩ لاستقاء اهلها في مصيرهم. قال: لما خرجنا من باريز كنا كلنا آمالاً بنجاة سورية وتحريرها فلما عدنا وجدنا ما قد يبيع السلع — باعها الانكليز بزيت الموصل وهو الزيت الذي عدّ الفرنسويون تنازلهم عنه ثمن أطلاق يدهم في سورية

واري ان تقلب (لورنس) الذي اشرت اليه فيما تقدم وعدم استقراره على رأي هو من اشد الاسباب الداعية الى الاشتباه في اخلاصه. مثاله: انه بعد ما كان قالطاً من الحكومة البريطانية قنوطاً شلّ حركته عاد فحسن ظنه سريعاً وقبل ان يكون مستشاراً خاصاً للمستر تشرتشل في وزراة المستعمرات سنة ١٩٢١ بمجرد وعد منه بان العرب سينالون قسطهم من الحرية. وبلغ به حسن الظن هذا حتى انه خشي ان تجلو بريطانيا عن العراق في تلك السنة يعني على رأيه قبل ان يصير العراقيون اهلاً للاستقلال التام. لا جرم انه قاوم سياسة الجلاء مقاومة كادت تضعه في صف المستعمرين وتغير رأي الناس فيه مما دعا صديقه المستر جريفز الى الاستغراب اذ قال معلقاً على هذا التقلب ان (لورنس) الذي ينحو هذا النحو الوطني في السياسة الانكليزية لا يكاد ينطبق على (لورنس) النهلستي العدمي الخالي من جميع الميول الوطنية ومع ذلك فالاثنان هما (لورنس) وانت لك الخيار في الانتخاب بينهما

والذي ادّى بلورنس الى هذه الوقفة المتقلقلة في العراق هو تشاؤمه من الوقفة في سورية من بعد ما كشّرت السياسة الفرنسوية عن نابها وضربت الحكومة الوطنية العربية في

المهد فرأى ان تزول الوزارة الانكليزية على رغبته في تحويل انتدابها على العراق الى معاهدة واجلاء جيشها البري والاكتفاء بقوة الطيران وتسليم زمام الامر الى حكومة وطنية وادخال العراق في عصبة الامم كل ذلك من بواعث التفاؤل في نفسه . وقال في احدى رسائله الى المستر (جريفز) لقد اخبرت المستر (لويد جورج) في باريز ان نواة الاستقلال العربي ستكون بغداد في آخر الامر لا دمشق الشام وذلك لان مستقبل العراق مستقبل عظيم في حين ان احتمال ترقية سورية وأتمامها احتمال ضعيف . ويبلغ سكان سورية الآن خمسة ملايين نسمة وسكان العراق ثلاثة ملايين فقط وسيكون في سورية سبعة ملايين من الاهلين عند ما يكون في العراق اربعون مليوناً . وقد حسبت دمشق الشام عاصمة لدولة عربية لنحو عشرين سنة ولكن لما احتلها الفرنسويون من بعد مرور سنتين كان علينا ان ننقل نواة الوطنية العربية الى بغداد فوراً وكان هذا العمل صعباً لان السياسة الموضعية التي اتبعتها بريطانيا في غضون الحرب الكبرى وفي خلال الهدنة كانت سياسة قمع واخماد للشعور الوطني جميعاً.... وقد آن لسياسة الحزم بالحكم ان تزول .... ومن البديهي ان يكون العراق نقطة الاعتماد لانهُ لا يمكن بل لا يجوز ان يوجد غير نواة واحدة للشعور الوطني العربي ويحسن ان تكون هذه النواة في المنطقة البريطانية لا المنطقة الفرنسوية اهـ . وارى ان لورنس افرط فيما ذهب اليهِ من قلة الثقة بترقية سورية وربما كان مصدر خطئه انهُ اقتصر في حسابه على قوة الارض وحدها ولم يعر قابلية السكان اهتمامه مع ان الذي حصل من النهضة الصناعية هناك وخصوصاً في دمشق الشام على الرغم من جميع العقبات الداخلية والخارجية يدعو الى الاستئناس والفخر

كيف خرج الحسين من الحجاز

ونرى في نفس هذه الرسالة نصًّا على فضيحة سياسية من الطراز الاوّل فقد بيّن بكل جلاء الاسباب التي دعت الى اخراج الحسين من الحجاز فقال « ثم اننا امضينا عرضاً واتفاقاً الحكم بالاعدام على الملك (حسين) فقد عرضت عليهِ معاهدة في صيف سنة ١٩٢١ كانت تبقي له الحجاز لو انه تخلّى عن مدعياته في السيادة على سائر الاقطار العربية ولكنهُ تمسك باللقب الذي انتحله لنفسه وهو (ملك جميع الاقطار العربية) فطرده ابن سعود النجدي وهو يحكم الحجاز الآن . وليس ابن سعود اصلوباً لظاميًّا بل هو حاكم مطلق تقوم سلطته على العقيدة المذهبية لذلك اوافق عليهِ كما اوافق على كل شيء آخر في جزيرة العرب يكون فرديًّا وغير منظم وغير مبنيّ على الاسلوب المنسّق » (روبرت جريفز صفحة ٣٤٨)

وهناك رسالة اخرى قبل هذه نشرها (لورنس) في التيمس في اليوم الثاني والعشرين من يوليو — تموز — سنة ١٩٢٠ وفيها الشيء الكثير عن العقيدة التي يدين بها في القضية العربية فقد ذكر فيها ان عضواً من مجلس النواب البريطاني اظهر تعجبهُ من العراقيين لمَ

حاربوا بريطانيا وصحبوا السلاح في وجهها مع ان الانتداب الذي تحمله حامل بحسن النية قال (لورنس) ويلوح لي ان هذا التعجب قائم على جهل عميق بآسيا الفتاة وبتاريخ السنوات الخمس الاخيرة فلا بد والحالة هذه من الايضاح : لقد ثار العرب على الترك لا لان الحكومة التركية فاسدة فساداً خاصاً بل لانهم طلبوا الاستقلال . وهم لم يلقوا انفسهم في اتون الحرب حبًّا بتغيير الاسياد — من اتراك الى انكليز او فرنسيين — بل ليكتسبوا المظهر الخاص بهم. والسؤال حل هم اهل للاستقلال يحتاج الى التجربة . بيد ان اللياقة ليست شرطاً للحرية فالبلغاريون والافغانيون والحبشيون حاصلون عليها ، وانك لتتمتع بالحرية عند ما تكون حسن السلاح شديد الشغب او تقطن بلاداً شائكة وعرة المسالك بحيث يكون مصروف جارك على احتلاله بلادك اكثر من ربحه . وقد دامت حكومة فيصل في سورية مستقلة استقلالاً تامًّا سنتين كاملتين حافظت في خلالها على الامن وعلى الخدمات العامة

ثم اعقب هذا الكلام بحملة منكرة على الادارة العسكرية التي انشأتها بريطانيا في العراق وبين عيوبها بالارقام بياناً لا يترك زيادة لمستزيد ثم اوصى بطريقة للاصلاح على النمط الذي ذكره للسر (تشرتشل) لما قبل ان يكون مستشاره الخاص وانهى هذه الرسالة بقوله :

«ولا شك ان هناك زيتاً في العراق ، بيد ان هذا الزيت ليس اقرب الينا مثالاً مادام الشرق الاوسط في حرب ، واذا كان هذا الزيت ضروريًّا لنا الى هذه الدرجة في الطاقة جعله موضوع مساومة . ويلوح لي ان العرب مرتاحون الى سلك دربهم للحصول على حريتهم . فكم هم اشد ارتياحاً الى سفك زيتهم في هذا السبيل ! » . ولم يكن وقف (لورنس) تجاه الاوسمة باقل من موقفه تجاه المال بل ان في نظره الى الاوسمة شيئاً من السخرية ينطبق على الظر كثير من اهل العلم والحكمة يدلنا على ذلك مثلاً ان المارشال (الني) طلب منهُ في اواخر الحرب مع الترك ان يقطع مواصلاتهم على (البحر الميت) وكانت لهم فيه سفن بخارية وشراعية حقيرة فاتفق مع البدو في (بئر السبع) وشنوا الغارة على هذه السفن فاغرقوها واسروا اصحابها ولما رفع تقريره عن ذلك الى المقر العام طلب مستزيداً ان يمنح بدلاً من وسام الخدمة البرية الممتازة وسام الخدمة البحرية الفائقة

وكان جلالة الملك فيصل حامل العراق اول من اخبرني بحديث الوسام الملكي المشهور الذي امتنع (لورنس) من قبوله بانفة عجيبة واباء يدل على الرجولة البارزة . وجاء حديث هذا الوسام في كتاب (جريفز) في الصفحة ٣٤٣ حيث يقول : « ورفض (لورنس) قبول الاوسمة التي عرضت عليه عقيب عودته الى انكلترا . وقد روى لي بعد اشهر من هذا التاريخ انهُ شرح لجلالة الملك جورج بصورة شخصية ان الدور الذي مثله في الثورة العربية لم يكن مشرفاً لهُ ولا لبلاده ولا للحكومة البريطانية فقد أُمر ان يمني العرب بالاماني الكاذبة وهو يرجو ان يعفى من قبول الاوسمة التي انعم بها عليه لتجاهه في الخديعة والاحتيال

وقد قال باحترام باعتباره تابعاً لجلالته وبحزم باعتباره فرداً مستقلاً انهُ اراد ان يحارب بجميع الوسائل من مستقيمة ومعوّجة الى ان يذعن وزراء جلالته لتسوية القضية العربية تسوية عادلة . وبحسب هذه الرواية التي لم يرد عليها (لورنس) شيئاً لما عرضها عليه اخيراً احترم جلالة الملك الوساوس التي خامرت نفسه واعفاهُ من الاوسمة ولكنهُ لم يشأ ان يصدق ان وزراءهُ يلعبون على الحبلين . فظهر (لورنس) امتناعهُ ثم اعاد على الفور اوسمته الاجنبية الى الذين منحوه اياها مع بيان عن الاحوال التي حملته على ذلك »

وقد استأذن المستر (جريفز) اللورد (سيدنهام) كاتم اسرار جلالة الملك الخاص في نشر العبارة المتقدمة فاجابهُ انهُ عرض الحديث على جلالته فكان جوابهُ « انهُ لا يتذكر ان عبارة الكولونل (لورنس) هي ما دوّن ولكن الكولونل لما طلب اعفاءهُ من قبول الاوسمة بيّن بكلمات مختصرة انهُ كان قد وعد الملك فيصلاً بعض الوعود وان هذه الوعود لم تنجز فيجوز والحالة هذه ان يجد نفسه في احد الايام محارباً للجيوش البريطانية ما يجعل حمله الاوسمة البريطانية عملاً خطأً وغير جائز بالبداهة . ولا يذكر جلالته قول الكولونل (لورنس) ان الدور الذي مثلهُ في الثورة العربية هُو عليهِ وعلى بلاده وحكومته »

ولما اجتمع الامير (فيصل) بالجنرال (اللنبي) في دمشق كان (لورنس) الترجمان بينهما وبعد حديث دام بضع دقائق جاء (لورنس) الى (اللنبي) بطلب شخصي هو الطلب الوحيد لنفسه اذ رجاه ان يسمح له بمغادرة البلاد السورية فتردد القائد العام ولكن الكولونل بين له كيف يكون الانتقال من حالة الحرب الى حالة السلم عند العرب اكثر سهولة واقرب تناولاً اذا ما بعد وانقطع نفوذه عن الاوساط العربية والانكليزية ففهم القائد العام المقصود من هذه العبارة واذن له بالسفر فغادر الشام بعد دخولها بثلاثة ايام على سيارة من سيارات (رولس — رويس) وقد ودّع اصحابه وداعاً مؤثراً وهكذا انتهت هذه الرواية الفاجعة

ويختم (لورنس) حديثه عن الثورة العربية وخروجه منها بكلمات مؤثرة تدل على نفس معذبة خابت في آمالها وامانيها وضاقت ذرعاً بما تحمله من الاوصاب المشوية فقد ذكر سماعه المؤذنين في دمشق يكبرون ويهللون ويدعون الناس الى صلاة العشاء في ليلة كثرت رطوبتها وازدانت مساجدها ابتهاجاً بعيد النصر ، وكان واحد من هؤلاء المؤذنين قريباً من العمارة التي نزل بها (لورنس) فكان يؤذن بصوت رخيم كأنهُ يناديه بيمن النافذة ان هلمّ الى الصلاة وفي ختام الاذان خفض صوته وشكر الله تعالى على النعمة الكبرى التي اولاها البلاد ، قال (لورنس) « فهدأت الجلبة لان الناس اجابوا الدعوة الى الصلاة في تلك الليلة وهي الليلة الاولى من حريتهم التامة . اما انا فان خيالي دلني في اثناء السكون الشامل على عزلتي الموحشة وعلى سخافة عقلي لانني من دون سائر المسلمين كانت لي هذه الحادثة محزنة وكانت هذه الجملة لا معنى لها في نفسي »